

## نظرات في كتاب البليوجرافيا أو علم الكتاب\*

عرض

أ.د. محمد فتحي عبد الهادي

أستاذ المكتبات والمعلومات

كلية الآداب - جامعة القاهرة

**تمهيد:**

الفكرى العربى فى مجال المكتبات والمعلومات مهمة من المهام اليومية تقريبا حتى الآن.

وكان من بين أمنيائى إعداد كتاب شامل عن البليوجرافيا خاصة مع قلة عدد الكتب العربية فى هذا المجال، ولذلك سعدت كثيرا عندما تلقيت نسخة من كتاب زميلى الفاضل الأستاذ الدكتور شعبان خليفة عن البليوجرافيا وسارعت بقراءته بتأن رغم ضخامته، وقد شدنى الكتاب كثيرا وبعد أن انتهيت من قراءته ووضعت على المكتب طافت فى ذهني بعض الخواطر حول الكتاب وموضوعه، وها أنذا أسجل هذه الخواطر من الكتاب، وبالتالي فليس ما أقدمه هو العرض الكامل والشامل للكتاب وإنما مجرد خواطر أو نظرات فى الكتاب وموضوعه.

**أ / أضخم وأشمل كتاب بالعربية عن**

**البليوجرافيا:**

على الرغم من أنه صدر بالعربية نحو عشرين كتابا عن موضوع البليوجرافيا من جوانبه المختلفة. إلا أن الكتب التى تتناول الموضوع تناولا عاما قليلة

تربطنى بالبليوجرافيا علاقة حميمة أو صلة وطيدة سواء فى جانب التدريس أو البحث أو حتى الممارسة، فقد شاركت باستمتاع فى إلقاء العديد من المحاضرات والدروس سواء فى جامعة السلطان قابوس بسلطنة عمان، أو فى العديد من الدورات التدريبية، كما كتبت عدة دراسات حول الموضوع منها الدراسات التى نشرت مجمعة فى كتاب صدر عام ١٩٨٧ بعنوان: دراسات فى الضبط البليوجرافى، أما جانب الممارسة فقد حظى منى باهتمام شديد دون أن أدري ودون تخطيط، ولعل ذلك بدأ فور حصولي على درجة الليسانس فى أوائل الستينيات من القرن العشرين وبدء الاستعداد للدراسات العليا، وكان ذلك دافعا لاكتشاف ما كتب بالعربية فى مجال المكتبات والمعلومات، وأذكر أنى بدأت بتكشيف مجلة «عالم المكتبات» التى كنت مولعا بها - بدأت بتكشيفها لنفسى، ثم اتسعت العملية رويدا رويدا حتى صار حصر الإنتاج

\* البليوجرافيا، أو، علم الكتاب: دراسة فى أصول النظرية البليوجرافية وتطبيقاتها: النظرية العامة / تأليف شعبان عبد العزيز خليفة.

- ط ٠١ - القاهرة الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٦ - ٥٢٤ ص.

وهي خمسة كتب حسب علمنا/ أول هذه الكتب كتاب. «قوائم المؤلفات أو البليوغرافيات» الذي ألفه نزار محمد علي القاسم ونشره ببغداد عام ١٩٧٢<sup>(١)</sup>. والكتاب يركز على كيفية إعداد البليوجرافيات مع تناول مفصل لأسلوب الوصف البليوجرافي (يشغل معظم الكتاب) وفصل تمهيدى موجز عن ماهية البليوجرافيا وقوائم المؤلفات وأغراضها وأنواعها ومعايير تقديمها. والملفت في هذا الكتاب عنوانه الرئيسي: «قوائم المؤلفات» وتعريفه لعلم البليوجرافيا بأنه علم الكتابة عن الكتب والمواد المكتبية والانتاجات الفكرية، أو أنه فن جمع المعلومات عن هذه المؤلفات وتقييمها إلى الآخرين بتسجيلها في قوائم والتعريف بها أن اقتضى الأمر.

والكتاب الثانى هو كتاب مترجم عن الفرنسية بعنوان: «البليوغرافيا» لمؤلفته لويز - نويل مالكليس أمينة مكتبة جامعة باريس، وقد نشرت الترجمة بيروت عام ١٩٧٤ فى سلسلة زدنى علما<sup>(٢)</sup> وهذا الكتاب يبدأ بمدخل تذكر فيه المؤلفة أن تاريخ البليوجرافيا - أو الفهرسة - [هكذا] لم يدون بعد إلا لماما، ولذلك فالكتاب فى أساسه مجرد استعراض تاريخى للبليوجرافيا أو لحصيلة الأعمال فى هذا الحقل ابتداء من القرن السادس عشر الميلادى حتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين تقريبا، مع فصل تمهيدى عن غرض البليوجرافيا وتحديداتها. ومن الملاحظ أن الاستعراض التاريخى للبليوجرافيات الغربية بصفة عامة والفرنسية بصفة خاصة.

أما الكتاب الثالث فهو من أهم الكتب العربية فى هذا المجال وهو كتاب: «البليوجرافيا ودراساتها فى علوم المكتبات» للأستاذ الدكتور سعد محمد الهجرسى. وقد نشر الكتاب بالقاهرة عام ١٩٧٤<sup>(٣)</sup>. وهو كتاب عظيم القيمة فمؤلفه من الأساتذة المشهود لهم فى المكتبات بصفة عامة وفى البليوجرافيا بصفة خاصة، حيث أرسى أسس أو دعائم هذا العلم ودرسه لسنوات طويلة بقسم المكتبات بجامعة القاهرة. والكتاب فى أصله دراسة مطولة قدمها صاحبها للمؤتمر الأول للإعداد البليوجرافى للكتاب العربى الذى انعقد بالرياض عام ١٩٧٣. وينقسم الكتاب إلى قسمين، أولهما عبارة عن مدخل مقترح لدراسة البليوجرافيا أو المدخل العام للبليوجرافيا الذى يضع الحدود العامة للبليوجرافيا ممارسة ودراسة ويرسم الخطوط التى تفصل بينها وبين غيرها من الدراسات ويقدم خريطة شاملة لكل ما يدخل ضمن الحدود البليوجرافية بهدف اعطاء الدارسين صورة متكاملة للمجال. ويتكون هذا المدخل من أربعة أبعاد هى: التعريفات والعلاقات، تاريخ البليوجرافيا، تقسيمات البليوجرافيا وأنواعها، المنهج العلمى لإعداد القائمة البليوجرافية. وفى الجزء الثانى من القسم الأول اختار المؤلف إحدى المسائل لكى يتم بحثها وحدها وكانت بليوجرافيات العالم العربى تاريخا وتقييما والبليوجرافيا بالعالم العربى علما وتخطيطا. أما القسم الثانى من الكتاب فقد اختار المؤلف أن يعرض فيه نموذجا مفصلا للوحدة الأولى من

(١) قوائم المؤلفات، أو، البليوغرافيات: تخطيطها، إعدادها، أساليب وصفها وإدراجها / تأليف نزار محمد علي القاسم. - بغداد:

وزارة الإعلام، مديرية الثقافة العامة، ١٩٧٢. - ٢١٦ ص.

(٢) البليوجرافيا / لويز - نويل مالكليس؛ ترجمة بهيج شعبان؛ مراجعة هنرى زغيب. - بيروت: منشورات عويدات، ١٩٧٤. - ١٦٦

ص.

(٣) البليوجرافيا ودراساتها فى علوم المكتبات / سعد محمد الهجرسى. - القاهرة: جمعية المكتبات المدرسية، ١٩٧٤. - ١٠٨ ص.

العربية بعنوان: «نشأة الجغرافيا القومية الشاملة الجارية» (١٩٨٤) وكتاب فؤاد فرسونى بعنوان: «الجغرافيا الوطنية الراجعة بين المصادر الاقتنائية والمصادر غير المباشرة» (١٩٩٤).

وكتابتنا هذا (الجغرافيا أو علم الكتاب) هو الكتاب الأول من كتابين، وهو يعالج النظرية العامة للجغرافيا من منطلق أن الجغرافيا هي علم قوائم الانتاج الفكرى، أو العلم الذى يدرس ما أنتج من قوائم والتعريف بها وتيسير سبل الإفادة منها كما يدرس خطوات وقواعد إعدادها وإنتاجها. أما الكتاب الثانى الذى ينوى المؤلف إصداره فيتناول النظرية الخاصة للجغرافيا من منطلق أن الجغرافيا هي علم الكتاب، أو العلم الذى يدرس الكتاب من ثلاث زوايا هي الرمز والوسيط والفكر.

وأنقل هنا عن المؤلف تلخيصه البليغ لمحتويات الكتاب الأول، حيث ذكر أنه يبدأ بتأصيل المصطلح وتطوره فى الزمان والمكان، ثم يضع الموضوع على خريطة المعرفة البشرية، فى التصنيفات المختلفة، بعد ذلك يقدم الكتاب تفاصيل ما وصل إليه علم الجغرافيا فى تخطيطه عامة متبوعة بشرح قليل. ثم ينتقل الكتاب بعد ذلك إلى دراسة ممارسة الضبط الجغرافى من أقدم العصور مروراً بالعصور الإسلامية والعربية الحديثة، ثم يلتفت الكتاب إلى الضبط الجغرافى فى الغرب من العصور الوسطى حتى الآن. وينتهى الكتاب ببيان كيفية إعداد مشروع جغرافى.

ومن الواضح بعد الاستعراض السابق مدى شمولية هذا الكتاب ومدى تناوله المفصل إذا قارناه بالكتب السابقة عليه.

وحدات المدخل العام للجغرافيا وهى التعريفات والعلاقات حيث يتناول أصل الكلمة وتعريفها والنشأة الاصطلاحية ومنطلقاتها والجغرافيا وعلوم الكتاب ووظيفة إعداد القوائم والجغرافيا وعلوم المكتبات.

والكتاب الرابع هو كتاب أبو بكر الهوش بعنوان: المدخل إلى علم الجغرافيا. وقد صدرت طبعته الأولى بليبيا عام ١٩٨١ وطبعته الثانية بتونس عام ١٩٩٢<sup>(١)</sup>، وهو كتاب دراسى صغير يشتمل على خمسة فصول أولها عن علم الجغرافيا وتطور معناه تاريخياً، والثانى عن أنماط الجغرافيات وأشكالها، والثالث عن كيفية إعداد القوائم الجغرافية، والرابع عن الجغرافيات فى التراث العربى الإسلامى، أما الفصل الخامس فعن استخدام الحاسب الآلى فى إعداد القوائم الجغرافية.

والكتاب الخامس بعنوان: «علم الوراثة: الجغرافيا المتخصصة»، لمؤلفه نزار عيون السود، وقد صدر بدمشق عام ١٩٨٨ (٢). ولم تتح لى فرصة الإطلاع على هذا الكتاب. وإن لفت نظرى عنوانه الرئيسى حيث استخدم المؤلف كلمة «وراثة» للإشارة إلى الجغرافيا.

أما الكتب العربية الأخرى فهى تتناول جوانب معينة أو مسائل وقضايا محددة فى الجغرافيا، ومنها كتاب سعد الهجرسى: «دراسات جغرافية لأوعية الفكر العربى» (١٩٧٥) الذى يتناول الضبط الجغرافى للدوريات والأطروحات الجامعية وكتاب محمد فتحى عبد الهادى: «دراسات فى الضبط الجغرافى» (١٩٨٧). ومن الكتب ما يختص بنوع من أهم أنواع الجغرافيا هو الجغرافيا الوطنية مثل كتاب ليندر المترجم إلى

(١) المدخل إلى علم الجغرافيا / أبو بكر الهوش. - ط ٢، مزيدة ومنقحة. - تونس: المعهد الأعلى للتوثيق، ١٩٩١. -

(٢) علم الوراثة: الجغرافيا المتخصصة نزار عيون السود. - دمشق: جامعة دمشق، مديرية الكتب الجامعية، ١٩٨٨. - ٢٨٨ ص.

## ٢ / الكتاب لعاشق منغمس في حب البليوجرافيا:

مارس المؤلف النشاط البليوجرافي منذ أن كان طالبا في قسم المكتبات، وهو قارئ دؤوب لما كتب عن البليوجرافيا، وهو بالإضافة إلى هذا وذاك منتج للعديد من الأعمال عن البليوجرافيا، فقد كانت أطروحته للماجستير عن أدوات اختيار الكتب في المكتبات (١٩٩٦)، كما أعد قاموسا بمصطلحات البليوجرافيا ونشره في «عالم المكتبات» عام ١٩٦٦، وأصدر «الفهرست» لابن النديم في شكل جديد (١٩٩١) وكذلك الأمر بالنسبة لفتح السعادة لطاشكبرى زادة (١٩٩٣).

### ٣ / موضوع البليوجرافيا موضوع قديم وقصته طويلة،

ربما أقدم وأطول من علم المكتبات نفسه، والرحلة شاقة عبر بلاد كثيرة في الغرب وفي الشرق، والمفاهيم الخاصة بالبليوجرافيا تتسع أحيانا وتضيق في أحيان أخرى عبر هذه الرحلة الطويلة.

تحس بكل ذلك وأن تقرأ المقولة الأولى من الكتاب الخاصة بتأصيل مصطلح البليوجرافيا وتطوره، وتعجب عندما تقرأ كتاباً دراسية عن علم البليوجرافيا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، وتعجب أيضا للاختلافات في مفهوم العلم بين علماء من ألمانيا وفرنسا وإنجلترا، وأنه مع نهاية القرن العشرين لم يستقر المصطلح على مفهوم واحد متفق عليه بل يختلف المفهوم من بلد إلى بلد، وأنه كلما نشأ فرع جديد يبدأ بمقطع «بليو» اليوناني انضم هذا الفرع إلى مجال المصطلح.

## ٤ / مشايعة استخدام مصطلح بليوجرافيا وليس وراقة:

يتحيز مؤلف الكتاب لمصطلح بليوجرافيا المعبّر، وذلك واضح في عنوان الكتاب، وفي متنه بصفة

عامة وعند استعراضه لنشأة المصطلح وتطوره في العالم العربي بصفة خاصة [ص ٦٩ - ٧٦].

ويذكر المؤلف أن كلمة وراقة كانت تدل عند العرب منذ القرن الأول للهجرة وخاصة في النصف الثاني منه على نسخ الكتب وهو نفس المعنى المحدود لكلمة بليوجرافيا في بداية استخدامها، وتطور مصطلح «الوراقة» الذي كان مرادفا للبليوجرافيا بمعنى نسخ الكتب في الحقبة اليونانية ليأخذ معنى النشر في عصر التدوين وتطور مصطلح الوراق ليعنى الناشر وبقي مصطلح النسخ والناسخ ليدل على عملية محدودة من النشر أو الوراقة. إلا أنه لم يتطور معنى الكلمة بعد ذلك في العربية بصورة مناظرة لتطور معنى كلمة بليوجرافيا في العالم الغربي، ولم يستخدمها العرب لعملية وصف الكتب كما حدث بالنسبة لمصطلح البليوجرافيا في القرن السابع عشر الأوربي وإنما استخدم العرب منذ القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) المصطلح الفارسي «الفهرسة» واستخدموا الفهرست أو الفهرس للدلالة على القائمة التي تضم الحصر والوصف أي ناتج عملية الوصف. كما استخدم العرب كلمات مثل برنامج ومشيجة ومعجم إلى جانب فهرست للدلالة على نوعيات محددة من القوائم طوال عصر الخطاطة العربية. وقد حدث نفس الشيء تقريبا في القرن التاسع عشر الميلادي فقد تم استخدام كلمة فهرس القديمة كما استخدمت كلمة معجم وكلمات أخرى مثل قائمة (المنطوعات)، نشرة، الخ.

ومن المعلومات الهامة والجديدة في نفس الوقت في هذا الصدد ما ذكره المؤلف، من أن أحمد زكي باشا صاحب كتاب موسوعات العلوم العربية الصادر سنة ١٣٠٨ هـ هو أول من استخدم كلمة بليوجرافيا المنقحرة عربيا في نحو سنة ١٨٩٧. وقد كان مترجما وتأثر بهذا العلم الفرنسي ونقحر الاسم الأجنبي وأطلق عليه بالعربية علم الكتب وهو علم

## ٥ / الجيوجرافيا لها موقعها المحدد علي خريطة المعرفة البشرية:

يتناول الدكتور شعبان خليفة وبالتفصيل موقع علم الجيوجرافيا على خريطة المعرفة البشرية رغم غموض مفهوم العلم واتساعه أو ضيقه من حين لآخر. والمؤلف لا يكتفى ببيان موقع الجيوجرافيا في نظم التصنيف الحديثة مثل تصنيف ديوى العشرى أو تصنيف مكتبة الكونجرس وإنما عمد إلى تتبع هذا الموقع عبر التاريخ عندما بحث عن وضع القوائم أياً كانت تسميتها في الفهارس والجيوجرافيات المصنفة. ومن أقدم ما أشار إليه وضع «قوائم الكتب في المكتبة الشاملة» أو ما نسميها الآن الجيوجرافية العالمية والتي أعدها كونراد جزر في مجلدها الأول بالمؤلفين سنة ١٥٤٥ وفي مجلدها الثاني المصنف سنة ١٥٤٨ ونشر كلاهما في زيورخ. وقد ذكر المؤلف [ص ٩٦] أنه «يمكننا القول مطمئنين بأنه مع بداية الأربعينات من القرن السابع عشر بدأ تجميع «القوائم» في شعبة خاصة بها داخل «قسم التاريخ الفكري من خطط التصنيف». ولم يهتم المؤلف ببيان الموقع فحسب وإنما اهتم كذلك بتقسيمات علم الجيوجرافيا في الأدوات المختلفة.

ورغم هذا الاستعراض المفيد وغير المسبوق إلا أنه كان بودنا أن نقرأ شيئاً عن موقع الجيوجرافيا أو الفهارس أو القوائم في الجيوجرافيات العربية الإسلامية المصنفة مثل فهرست ابن النديم أو مفتاح السعادة لطاشكبرى زادة أو غيرها إن كان هناك ذكر فيها لمثل هذه القوائم أو الفهارس.

## ٦ / رؤية جيدة لمحتويات مصطلح الجيوجرافيا:

قدم الباحث خريطة ص ١٣١ تشمل على تقسيم الجيوجرافيا إلى ثلاثة قطاعات عريضة هي: الجيوجرافيا التاريخية والجيوجرافيا البحثية

يبحث فيه عن المؤلفات ووصفها والكلام عليها وترتيبها... وجاء بعده يوسف اليان سر كيس حيث ذكر في كتابه «جامع التصانيف الحديثة» الصادر سنة ١٩٢٧ أن هذا العلم الذي سمته إحدى المجالات علم الفهرسة أو علم الجيوجرافيا أصبح من العلوم الضرورية للسير في سبيل التقدم والنجاح. وقد ظهرت كلمة جيوجرافيا لأول مرة في لائحة سنة ١٩٥٤ لمعهد الوثائق والمكتبات بجامعة القاهرة «مواد الدراسة بمعهد الوثائق والمكتبات: مشروع اللجنة سنة ١٩٥٤». إلا أنه حدث أن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عقدت حلقة دراسية عن المكتبات بدمشق عام ١٩٧١ وجاء عنوان هذه الحلقة على النحو التالي: الحلقة الدراسية للخدمات المكتبية والوراقة «الجيوجرافيا» والتوثيق والمخطوطات العربية والوثائق القومية. وذلك يشير إلى استخدام كلمة وراقة بصورة أساسية واستخدام كلمة جيوجرافيا الواسعة الانتشار في ذلك الوقت على هيئة مرادف لها، ورغم أن المنظمة تخلت عن كلمة وراقة في أعمالها التي صدرت بعد ذلك، إلا أنه سيرا في اتجاه استخدام كلمة وراقة عمد بعض الكتاب مثل الدكتور حشمت قاسم إلى استخدام كلمة وراقة ومشتقاتها - منذ أواخر السبعينيات من القرن العشرين - كبديل لكلمة جيوجرافيا ومشتقاتها. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هناك بعض الكتب التي تصدر في الوقت الحاضر عن الوراقة بمفهومها القديم وتحمل في عناوينها كلمة الوراقة للدلالة على ذلك مثل كتاب لطفى الله قارى: الوراقة والوراقون في التاريخ الإسلامى (١٩٨٢) وكتاب على النملة: الوراقة وأشهر أعلام الوراقين: دراسة في النشر القديم ونقل المعلومات (١٩٩٥).

ولا شك أن كلمة جيوجرافيا هي الأكثر شيوعاً عن كلمة وراقة لكننا لا نعرف ماذا تخيئ لنا السنوات القادمة.

والبليوجرافيا التطبيقية. ويندرج تحت كل منها شعب وتتفرع بعض الشعب إلى فروع. وقد أتبع هذه الخريطة بشرح مفصل بعض الشيء لمحتوياتها من الأصول والشعب والفروع. وهذا التقسيم هو جهد طيب، لكننا كنا نود أن نقرأ شيئاً عن علاقة علم البليوجرافيا بغيره من العلوم حتى يكتمل اتساح الصورة.

## ٧ / مفهوم خاص يتعلق بكتابة المصادر:

رغم اعتماد الكاتب على الكثير من المصادر باللغات الأجنبية وباللغة العربية والتي ذكرها في نهاية كل مقولة من مقولاته الست إلا أنه - وعن عمد - لا يوثق المعلومات توثيقاً دقيقاً بمعنى ذكر رقم الصفحة أو أرقام الصفحات التي رجع إليها في مصدر ما عند استشهاده به وإنما يكتفى بالبيانات البليوجرافية المعروفة دون أرقام الصفحات المحددة، وحتى الاقتباسات التي أخذها من المصادر لا يشير صراحة إلى موقعها المحدد بالمصادر [أنظر ص ٩٤، ٩٥ على سبيل المثال].

وعندنا سألناه ذات مرة عن السبب في ذلك قال أنه فعل ذلك بعد أن لاحظ أن بعض الباحثين ينقلون من دراساته المعلومات ومصادرهما بما في ذلك أرقام الصفحات دون الإشارة إلى الوسيط، وكان الباحث قد اطلع بنفسه على هذه المصادر علماً بأن بعضها ليس في متناول يده.

وعلى العموم فكتابة المصادر بهذا المفهوم تكاد تجبر المستفيد على الاستشهاد بالوسيط أو العودة إلى المصادر مرة أخرى لتحديد أرقام الصفحات.

## ٨ / المؤلف مُعْرَم بالمصطلحات الفريدة وبالطرائف:

لم يستخدم المؤلف كلمة تقديم أو مقدمة كما اعتاد على ذلك أغلب المؤلفين في بداية كتبهم

وإنما استخدم «تبصرة وبصر»، كما أنه قسّم الكتاب إلى ست مقولات وليس ستة فصول أو ستة أبواب كما درج المؤلفون على ذلك. وعلى العموم فإن لغة الكتاب تدل على مقدرة لغوية فائقة.

وعلى الرغم من أن المؤلف قد أورد معلومات هامة كثيرة إلا أن بعضها يتسم بالطرافة مثل:

- «... وكلّ ينظر إليها [البليوجرافيا] من زاوية خاصة ويطورها لخدمة وجهة نظره لدرجة أن نابليون بونابرت أدلى بدلوه فيها وأن وزير داخلية فرنسا في يوم من الأيام تدخل في توجيهها... ص ٧».

- «ومن الطريف أن بعض الفهارس [فهارس الشيوخ] يقتصر على «النسوان» الأستاذات أو الشيوخ وحدهن. ومن ثم تتلون المعلومات في هذه الفهارس بلون أنثوي». ص ١٧٩.

- «كان من بين المؤلفين المحصورين في الفهرست [لابن النديم] اثنتان وعشرون مؤلفة أنثى بنسبة ١٪ فقط مما يكشف عن أن مجال التأليف عند المسلمين كان مجال ذكور بالدرجة الأولى». ص ٢٠٣.

\* \* \*

إن هذا الكتاب الموسوعي هو عمل شامل كبير يحتوي على معلومات غزيرة ومتنوعة. والكتاب تلمح فيه شخصية الكاتب رغم اعتماده على العشرات من المصادر. والكتاب تلمح فيه أيضاً الحس التاريخي المرهف لصاحبه، فضلاً عن أشياء أخرى كثيرة.

إن الكتاب جدير بالقراءة من جانب فئات متعددة، فهو لطالب المكتبات والمعلومات، وهو لإخصائي المكتبات والمعلومات، وهو للبليوجرافي، كما يمكن أن يستمتع به أيضاً المثقف العام.

